

حجاجية الخطاب في المناظرات الأدبية في العصر العباسي

The argumentative nature of discourse
in literary debates during the Abbasid era

Dr. Hala Fathi Kazem
Basra and Arabian Gulf Studies Center

أ. م. د. هالة فتحي كاظم
مركز دراسات البصرة والخليج العربي

تاريخ النشر: 2026/6/1 تاريخ القبول: 2026/1/12 تاريخ الإستلام: 2025/12/29
Received: 29 / 12 / 2025 Accepted: 12 / 1 / 2026 Published: 1 / 6 / 2026

المُلخَص:
يهدف هذا البحث إلى دراسة البنية الحجاجية في الخطاب الذي اتسمت به المناظرات الأدبية في العصر العباسي ، الذي يُعدّ العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، والذي شهد ازدهاراً ثقافياً وفكرياً كبيراً. انبثقت فيه المناظرات كفنٍّ أدبيٍّ رفيع ، يجمع بين طياته العمق الفكري ، والبراعة اللغوية ، والاستراتيجية الإقناعية. تتبنى الدراسة المنهج التحليلي الوصفي ، لفحص الآليات والاستراتيجيات الحجاجية التي استخدمها الأدباء والكتاب لإقناع الخصم والمتلقّي ، وكيفية توظيفهم للعقل والمنطق إلى جانب البلاغة والعاطفة في بناء خطابهم. وتكشف الدراسة عن أن الحجاج في المناظرات العباسية لم يكن هدفه الإفحام

mechanisms and strategies used by writers and scholars to persuade their opponents and audience, and how they employed logic and reason alongside rhetoric and emotion in constructing their discourse

The study reveals that argumentation in Abbasid debates aimed not only at refutation but also at demonstrating cultural prowess and superiority, and reinforcing a social or political stance. It also illustrates how these debates interacted with the cultural context of the era by invoking religious texts, proverbs, poetry, and historical evidence. The research concludes by affirming that the argumentative nature of the discourse was the backbone of the Abbasid debate, making it a living record of the intellectual conflict and literary competition that characterized that period.

Keywords: Argumentation, Discourse, Literary Debates, Abbasid Era, Persuasive Mechanisms, Al-Jahiz, Ibn Qutaybah, Intellectual Conflict.

المقدمة

تمثل المناظرات الأدبية في العصر العباسي مرحلة متقدمة من تطور الخطاب العربي ، إذ خرج النص الأدبي من دائرة الإخبار والسرد إلى دائرة الإقناع والجدل ، متخذاً

فحسب ، بل أيضاً إظهار البراعة والتفوق الثقافي ، وتعزيز الموقف الاجتماعي أو السياسي. كما تبين كيف تفاعلت المناظرات مع السياق الثقافي للعصر ، من خلال استدعاء النصوص الدينية والأمثال والشعر والشواهد التاريخية. ويختتم البحث باستنتاجات تؤكد على أن حجاجية الخطاب كانت العمود الفقري للمناظرة العباسية ، مما جعلها سجلاً حياً للصراع الفكري والتنافس الأدبي الذي ميّز تلك الحقبة. الكلمات المفتاحية : الحجاج ، الخطاب ، المناظرات الأدبية ، العصر العباسي ، الآليات الإقناعية ، الجاحظ ، ابن قتيبة ، الصراع الفكري.

Abstract:

This research aims to study the argumentative structure in the discourse that characterized literary debates in the Abbasid era, which is considered the golden age of Arab-Islamic civilization and witnessed significant cultural and intellectual flourishing. Debates emerged as a high literary art, combining intellectual depth, linguistic brilliance, and persuasive strategy. The study adopts the descriptive-analytical approach to examine the argumentative



الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن لإخوان الصفا ، إضافة إلى مناظرات أخرى كالسيف والقلم والليل والنهار. كما تسعى إلى تتبع العلاقة بين الخطاب والمتلقي ، والكيفية التي يوظف بها الحجاج لإعادة تشكيل وعي القارئ داخل النص وخارجه.

المبحث الأول

الإطار النظري للحجاج في الخطاب الأدبي.

يرتبط مصطلح الحجاج في التراث العربي بمفهوم الاحتجاج ، أي إقامة الدليل والبرهان لإثبات صحة القول. وقد استُخدم في القرآن الكريم بمعنى المناقشة بالحكمة والموعظة الحسنة : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). وفي الفكر البلاغي القديم ، برز الحجاج بوصفه غاية من غايات البيان. يقول الجاحظ : ” البيان هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي » (البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٥) ، أي إخراج المعاني من القلب إلى السمع في صورة تقنع السامع . أما في النقد الحديث ، فقد تطوّر المفهوم بفضل الدراسات

من الحجاج وسيلةً لإنتاج المعنى والتأثير. فالمنظرة العباسية ليست نصًّا ساكنًا ، بل فضاءً مفتوحًا للصراع بين الأفكار ، تُوظف فيه اللغة لإثبات الرأي أو نفيه ، والبرهان لإقناع المتلقي أو زعزعته. لقد عرفت الثقافة العباسية أوجَ ازدهارها العقلي والفلسفي حيث اختلطت فيها المناظرات الكلامية بالعقائدية ، وتلاقحت فيها العلوم الدينية واللغوية والمنطقية. ومن هنا اكتسب الخطاب الأدبي وظيفةً جديدة تتجاوز المتعة الجمالية إلى الإقناع الفكري. فالحجاج لم يكن مجرد تزيين لغوي ، بل أداة لتداول المعارف ومساءلة المسلّمات. وتتجلى أهمية دراسة الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية في كونها تقدم أمودجًا لجدل ثقافي عميق يمزج بين البرهان والمنطق من جهة ، والبيان والبلاغة من جهة أخرى ، لتشكّل معًا نواة الفكر النقدي العربي المبكر. تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن آليات الحجاج في تلك المناظرات ، من خلال تحليل نماذج مختارة تمثل ذروة النضج الجدلي ، كمنظرة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ، ومنظرة تداعي



خطابًا ثقافيًا يتجاوز حدود البلاغة إلى الفكر.

مفهوم الحجاج والمناظرة

يُعرّف الحجاج في الدراسات اللغوية والأدبية الحديثة على أنه النشاط الخطابي أو الكلامي الذي يهدف إلى إقناع متلقٍ ما ، أو تأكيد صحة رأي أو موقف ، أو دحض رأي آخر. وهو يختلف عن البرهان المنطقي الصارم ، إذ يمكن أن يشمل عناصر عاطفية وبلاغية وأخلاقية. فالحجاج عند بيرلمان هو فن استخدام اللغة لتوجيه سلوك الآخرين أو تغيير معتقداتهم ” (بيرلمان ، المصنف في الحجاج ، ص ١٩). أما في السياق العربي القديم ، كان الحجاج مُتضمّنًا في مفاهيم مثل «الجدل»، «الخطابة»، «البرهان»، و«أدب المناظرة».

وتعد المناظرة محاورة منظمّة بين طرفين أو أكثر حول قضية خلافية ، يسعى كل طرف فيها إلى إثبات صحة رأيه وإبطال رأي خصمه ، باستخدام الحجج والبراهين. وكانت المناظرة في العصر العباسي وسيلة للتنافس على المراكز الاجتماعية والعلمية ، وكسب رضا الخلفاء والأمراء ، وإثبات التفوق الفردي والجماعي.

التداولية عند بيرلمان وتيتكا اللذين وجدا بأنه يمثل فنّ الإقناع عبر اللغة ، أي استخدام الخطاب بوصفه وسيلة عقلية وأخلاقية تؤثر في المتلقي (بيرلمان ، المصنف في الحجاج ، ص ١٨). نشأ الحجاج الأدبي في رحم المناظرات الكلامية والفكرية في العصر العباسي ، حيث كانت قضايا العقيدة والقدر والحرية والعقل محلّ جدل واسع بين المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة والفلاسفة. وفي ظل هذا التنوع الفكري ، أصبح الأدب جزءًا من الحوار الثقافي العام. لا ينفصل الحجاج عن البلاغة ، لأن الإقناع في التراث العربي مشروط بجمال الأسلوب. فالاستعارة والمقابلة والتورية ليست تزيينًا ، بل آليات للإقناع النفسي والعقلي في آنٍ واحد. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن النظم هو أن تضع الكلام مواضعه ، وتؤلّف بين ألفاظه على وجهٍ يُؤدّي المعنى ببيانٍ يرضاه العقل (ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ١٠٤ وما بعدها) ، وعليه فإن الحجاج في المناظرة الأدبية العباسية ليس برهانًا منطقيًا فقط ، بل فنّ تعبيريّ يُزوّج بين العقل والخيال ، وبين المنطق والوجدان ، ليصوغ



والأدباء ، حيث يُكافأ الفائز بالجوائز
والمناصب.

المبحث الثاني

وظائف الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية

١. الوظيفة الإقناعية للحجاج في
المناظرات الأدبية في العصر العباسي
يُعدّ العصر العباسي من أكثر العصور
العربية ثراءً في إنتاج الخطابات
الجدلية ، ولاسيما المناظرات الأدبية
التي نشأت في سياق ثقافي اتّسم
بتعدّد المرجعيات الفكرية ، وتداخل
السلطة السياسية بالمعرفة ، واحتدام
التنافس بين الاتجاهات اللغوية
والنقدية. ولم تكن هذه المناظرات
مجرد سجلات فكرية معزولة
، بل مثلت نمطاً خطابياً واعياً
بوظيفته التأثيرية ، إذ استندت إلى
الحجاج بوصفه أداة إقناع ، لا غايةً
عقلية خالصة. وينطلق هذا الجزء
من البحث من فرضية مفادها
أن الحجاج في المناظرات الأدبية
العباسية أدّى وظيفة إقناعية مركزية
، أسهمت في توجيه الذائقة الأدبية ،
وترسيخ معايير النقد ، وبناء سلطة
ثقافية تفرض نفسها على المتلقي ،
سواء أكان قارئاً أم سامعاً. لا يُقصد
بالحجاج في المناظرات الأدبية

فقد ذكر الدكتور شوقي ضيف بأن
المناظرات كانت تحتل مكاناً كبيراً
في حياتهم الأدبية والعلمية ، وكان
الخلفاء والوزراء أنفسهم يشجعون
عليها (شوقي ضيف ، تاريخ الادب
العربي ، ص ٤٥٧).

السياق التاريخي والثقافي للمناظرات في العصر العباسي

ساهمت عدة عوامل في ازدهار فن
المناظرة في العصر العباسي:

١. الانفتاح الثقافي : اختلاط الثقافة
العربية بثقافات الأمم المفتوحة
(فارسية ، يونانية ، هندية) ، مما
أدى إلى ظهور آراء ومذاهب فكرية
جديدة تتصارع فيما بينها .
٢. ازدهار الترجمة : نقلت حركة
الترجمة علوم المنطق والفلسفة
اليونانية ، والتي قدّمت أدواتها
فكرية دقيقة للتحليل والاستدلال ،
أثرت مباشرة في بناء الحجج.
٣. الحراك الاجتماعي والسياسي
: سعى المتنافسون من مختلف
الأصول (عرب ، موالي) إلى إثبات
مكانتهم عبر التفوق في المجال
الفكري والأدبي.
٤. دور البلاط : تحوّل بلاط الخلفاء
، كهارون الرشيد والمأمون والمعتصم
، إلى ساحات للمناظرات بين العلماء

العباسية البرهنة المنطقية الصارمة ، بقدر ما يُقصد به توظيف جملة من الوسائل البلاغية والعقلية والنفسية التي تهدف إلى حمل المتلقي على تبني موقف أدبي أو نقدي معيّن. وقد تجلّى هذا الوعي الحجاجي في كتابات الجاحظ ، والتوحيدي ، وغيرهما من أعلام النثر العباسي ، حيث يتداخل الإقناع مع البيان ، والجدل مع السرد. ويظهر ذلك بوضوح في كون المتناظرين لا يخاطبون خصومهم فحسب ، بل يستحضرون دائماً حضوراً ضمنيّاً لجمهور يُراد التأثير في أحكامه. المناظرة الأدبية بوصفها خطاباً إقناعياً ١

تقوم المناظرة الأدبية العباسية على بنية حوارية ظاهرها التبادل العقلي ، وباطنها الصراع على الشرعية الأدبية. ومن ثمّ ، فإن الوظيفة الإقناعية للحجاج تتجلّى في محاولة كل طرف إضفاء المشروعية على رأيه ، ونزع المصدقية عن الخصم ، وكسب تعاطف المتلقي أو ثقته أمّاط الحجاج الإقناعي في المناظرات الأدبية العباسية

١. الحجاج بالسلطة اللغوية والتراثية يُعد الاحتجاج بالسمع واللغة

الموروثة من أبرز آليات الإقناع في المناظرات اللغوية والنقدية في العصر العباسي. ففي الجدل بين البصريين والكوفيين ، يُقدّم السماع بوصفه أصلاً لا يُجادل ، في مقابل القياس الذي يُنظر إليه على أنه فرع قابل للنقض. ومن ذلك ما أورده الجاحظ في سياق حديثه عن اختلاف النحاة ، حيث ينقل قول أحدهم : «نحن نحتج بما سمعناه من العرب ، وأنتم تحتجون بالقياس ، والسماع أصل والقياس فرع » (الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٧). وتؤدي هذه الحجة وظيفة إقناعية واضحة ، إذ تُقنع المتلقي بأن الخصم لا يستند إلى "الأصل" ، وتُكسب المتكلم سلطة معرفية نابغة من الاتصال المباشر بالتراث اللغوي.

٢. الحجاج بالتمثيل والمثال من السمات البارزة للمناظرات الأدبية العباسية اعتماد التمثيل والمثال وسيلةً لتقريب القضايا النقدية المجردة. ويبرز هذا الأسلوب في مناظرات المفاضلة بين الشعراء ، حيث لا يُقدّم الحكم بصورة تقريرية ، بل يُترك للمتلقي أن يستنتجه عبر المثال. ومن ذلك ما أورده أبو حيّان التوحيدي في



سياق نقاشه حول النظم والنثر :
 ” ألا ترى أن الانسان لا ينطق في أول
 حاله من لدن طفوليته إلى زمان
 مديد إلا بالمشور المتبدد ، والميسور
 المتردد . ولا يلهم إلا ذاك ولا يناغى إلا
 بذاك . وليس كذلك المنظوم ، لأنه
 صناعي ، ألا ترى أنه داخل في حصار
 العروض وأسر الوزن وقيد التأليف
 » (التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ،
 ص ٢٥٠) ، وتتجلى الوظيفة الإقناعية
 هنا في أن المثال يُفكك رأي الخصم
 ضمناً ، ويقود المتلقي إلى رفضه
 دون مواجهة مباشرة.

٣. الحجاج التفيدي ونقض المقدمات
 يُعد الحجاج التفيدي من أكثر
 الأماط حضوراً في المناظرات الأدبية
 العباسية ، ويقوم على نقض
 المقدمات التي يستند إليها الخصم
 ، بدل الاكتفاء بعرض رأي بديل .
 ويبرز الجاحظ أمودجاً واضحاً لهذا
 الأسلوب ، ولاسيما في مناقشاته
 ومناظراته حول قضية سلامة الألفاظ
 وخلوها من التنافر والغرابة، إذ
 يقول : «وكما لا ينبغي أن يكون
 اللفظ عامياً ساقطاً فكذلك لا ينبغي
 أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون
 المتكلم بدوياً اعرابياً فان الوحشي
 من الكلام يفهمه من الناس كما

يفهم السوقي رطانة السوقي ،
 وكلام الناس طبقات ، كما ان الناس
 في طبقات » (الجاحظ ، الحيوان ،
 ج ٢ ، ص ١٣٠) . تعمل هذه الصيغة
 التفيديّة على زعزعة المسلّمات
 التي ينطلق منها الخصم ، وتُقنع
 المتلقي بأن الرأي المقابل يقوم على
 افتراضات غير دقيقة.

٤. الحجاج الأخلاقي وبناء صورة
 المتكلم
 لم يكن الإقناع في المناظرات العباسية
 قائماً على العقل وحده ، بل شمل
 بناء صورة أخلاقية للمتكلم تُكسبه
 ثقة المتلقي. ويتجلى هذا النمط
 بوضوح في مناظرات الأدب والفكر
 التي يرويها التوحيدي ، حيث
 يحرص المتكلم على تقديم نفسه
 بوصفه باحثاً عن الحق لا طالباً
 للغلبة. ومن ذلك قوله على لسان
 أحد المتناظرين : «لسنا نخاصم
 طلباً للغلبة ، ولكن ابتغاءً للحق »
 (التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج ٢ ،
 ص ١٥) . وتؤدي هذه الاستراتيجية
 وظيفية إقناعية مؤثرة ، إذ تُضفي
 على الخطاب طابعاً أخلاقياً يقرب
 المتلقي من المتكلم ، ويُبعده عن
 الشك في دوافعه.

٥. الحجاج العاطفي واستثارة

محورية ، تجاوزت حدود السجال إلى التأثير العميق في الذائقة الأدبية وبناء السلطة الثقافية.

٢. الوظيفة الجمالية للحجاج في المناظرات الأدبية في العصر العباسي لم تقتصر المناظرات الأدبية في العصر العباسي على أداء وظيفة إقناعية أو جدلية فحسب ، بل انطوت على بعدٍ جماليٍّ واضح ، جعلها نصوصاً أدبية قائمة بذاتها ، تتداخل فيها البلاغة بالحجاج ، والمتعة الفكرية بالتأثير الخطابي. وقد أسهم هذا التداخل في تحويل المناظرة من مجرد سجالٍ عقلي إلى خطاب جمالي يستثمر طاقات اللغة ، ويُنمّي ذائقة المتلقي ، ويرسّخ قيم البيان والفصاحة. ويمكن أن ننطلق من فرضية مؤداها أن الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية أدّى وظيفة جمالية موازية لوظيفته الإقناعية ، تجلّت في حسن الصياغة ، وبلاغة التصوير ، والإيقاع اللغوي ، وبناء المفارقة ، بما جعل المناظرة نصّاً ممتعاً بقدر ما هو مُقنع.

الجمالية بوصفها مكوناً حجاجياً \ وعى أدباء العصر العباسي إلى أن الإقناع لا يتحقّق بالحجّة العقلية وحدها ، بل يحتاج إلى صياغة

الوجدان الحضاري إلى جانب الحجج العقلية ، لجأ الأدباء العباسيون إلى استثارة الوجدان ، ولاسيما في المناظرات ذات الطابع الحضاري ، كالمفاضلة بين البداوة والحضارة. ويظهر هذا الأسلوب جلياً في كتابات الجاحظ ، حيث تُستعمل الأسئلة الاستنكارية لإحداث أثر إقناعي. يقول الجاحظ : «أفتري أن من عاش في الخلاء كمن نشأ بين الكتب والعقول؟» (الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٢). ويُسهّم هذا النمط من الحجاج في دفع المتلقي إلى تبني موقف ثقافي معيّن عبر استثارة مشاعر التفوق أو الانتماء الحضاري.

لقد أسهمت المناظرات الأدبية العباسية ، بما تضمّنته من حجاج إقناعي ، في بلورة معايير النقد الأدبي ، وترسيخ مفاهيم البلاغة والفصاحة ، وتكريس سلطة أدبية مركزية تحدّد المقبول والمرفوض في القول الأدبي. ومن ثمّ ، لم يكن الحجاج أداة جدلية فحسب ، بل غدا آلية فاعلة في إنتاج الثقافة الأدبية وتوجيه الوعي النقدي. ولذا نجد أن الحجاج في المناظرات الأدبية في العصر العباسي أدّى وظيفة إقناعية



١.الجمالية القائمة على الصورة البلاغية
استثمر الأدباء العباسيون الصورة البلاغية في بناء حججهم ، فجاء التشبيه والاستعارة وسيلةً لإيضاح الرأي وإمتاع المتلقي في آنٍ واحد. ومن ذلك ما أورده الجاحظ في سياق المفاضلة بين البيان والعيّ ” وقالوا : البيان بصر والعي عمى ، كما إن العلم بصر والجهل عمى والبيان من نتاج العلم ، والعي من نتاج الجهل » (الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٨). تؤدي هذه الصورة وظيفة جمالية عبر تحويل الفكرة النقدية إلى مشهد حسيّ ، يجعل الحجاج أكثر رسوخاً في ذهن المتلقي.

٢.الجمالية القائمة على الإيقاع والتوازن الأسلوبي
من مظاهر الوظيفة الجمالية للحجاج في المناظرات العباسية العناية بالإيقاع الداخلي ، من خلال السجع ، والمقابلة ، والتوازن التركيبي ، وهو ما يمنح الخطاب طابعاً موسيقياً يزيد من تأثيره. ويظهر هذا بوضوح في مناظرات التوحيدي ، حيث يقول في سياق جملة من المناظرات حول النظم والنثر ” وقال ابن هندو الكاتب : إذا نظر في

جميلة تُؤثّر في الذوق قبل العقل. ولهذا ، فإن الحجاج في المناظرات الأدبية لم يُصغ بلغة تقريرية جافة ، بل بلغة مشحونة بالصور البلاغية ، والإيقاع ، والتراكيب المحكمة. ويشير الجاحظ إلى هذا التداخل حين يؤكد على أن البيان لا يقوم إلا بحسن التأليف وجودة السبك ، وهو ما يجعل القول أوقع في النفس وأشد تأثيراً ، إذ قال « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً » (الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١٦).

المناظرة الأدبية بوصفها نصّاً جماليّاً
١
تُقرأ المناظرات الأدبية العباسية - ولاسيما تلك التي دونها الجاحظ والتوحيدي - بوصفها نصوصاً أدبية تتوافر فيها عناصر التشويق والمفارقة والتدرّج الحجاجي ، واللذة الأسلوبية . ومن ثمّ ، فإن الجمال لم يكن عنصراً عرضياً ، بل جزءاً من استراتيجية الحجاج ذاته.

مظاهر الوظيفة الجمالية للحجاج في المناظرات العباسية

قصصًا ، بما يشمل وصف الشخصيات ، وحركاتها ، وتدرج القول بينها ، وهو ما نجده بوضوح في الإمتاع والمؤانسة. إذ يحرص التوحيدي على نقل المناظرة في صورة مشهد حي ، يُشرك القارئ في تفاصيله ، ويجعل الحجاج جزءًا من تجربة جمالية كاملة ” ألا ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في حديث المنطق ، فانه يقول : لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناها من المنطق وملكناه من القيام به واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده ، فاطلنا عليه من جهة اسمه على حقائقه . فاحجم القوم وأطرقوا ، قال ابن فرات : والله إن فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإني لأعدكم في العلم بحارا ، وللدين وأهله أنصارا ، وللحق وطلابه منارا ، فما هذا الترامز والتغامز اللذان تجلون عنهما ؟ فرفع أبو سعيد السيرافي رأسه فقال : اعذر أيها الوزير ، فان العلم المصون في الصدر غير العلم المعروف في هذا المجلس على الأسماع المصيخة والعيون المحدقة

النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما ، والاطلاع على هواديهما وتواليهما كان أن المنظوم فيه نثر من وجه ، والمنثور فيه نظم من وجه ، ولولا أنهما يستهمان هذا النعت لما اختلفا ولا اختلفا » (التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥) . يسهم هذا التوازي الإيقاعي في إضفاء جمال لغوي يجعل الحجة أكثر قبولا وأشد نفاذا .

٣.الجمالية القائمة على المفارقة والسخرية

تُعد المفارقة من أبرز الأدوات الجمالية في الحجاج العباسي ، ولاسيما عند الجاحظ ، الذي يوظف السخرية لتقويض رأي الخصم بأسلوب ممتع . ومن ذلك قوله في سياق نقد المتشددّين في اللغة : «يزعم أنه يحفظ اللغة ، وهو أضيع لها من اللحن نفسه » (الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٦٣) . تُحقّق هذه المفارقة أثرًا جماليًا ، وتؤدي في الوقت نفسه وظيفة حجاجية تتمثل في إضعاف موقف الخصم أمام المتلقي .

٤.الجمالية القائمة على بناء المشهد الحواري

من السمات الجمالية في المناظرات العباسية تصوير الحوار تصويرًا



والعقول الحادة والألباب الناقدة فقال ابن فرات : أنت لها يا أبا سعيد , فاعتذارك عن غيرك , يوجب عليك الانتصار لنفسك , والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك . فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هجنة والاحتجاج عن رأيه إخلاذ إلى التقصير » وبعد هذا المشهد الحوارى بين الوزير ابن فرات والسيرافى تبدأ المناظرة بين متى والسيرافى وهي مناظرة طويلة (التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج ١ ، ص ٧٩ - ٨٠).

وفيما يخص أثر الوظيفة الجمالية للحجاج في تلقي المناظرات العباسية نجد أنها قد أسهمت في جعل المناظرات نصوصاً مقروءة لذاتها وكذلك ترسيخ القيم البلاغية والفنية في النقد الأدبي كما سعت إلى تحويل الخلاف الفكري إلى مساحة للإبداع اللغوي. وقد أدّى هذا البعد الجمالي دوراً أساسياً في حفظ المناظرات وانتقالها ، إذ لم تُتداول بوصفها وثائق فكرية فحسب ، بل بوصفها نماذج عليا للبيان. نخلص من ذلك إلى أن الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية لم يكن أداة إقناع عقلي فحسب ، بل كان ممارسة

جمالية واعية ، استثمرت طاقات اللغة والبيان ، وأسهمت في تشكيل الذائقة الأدبية والنقدية. وقد تجلّت هذه الوظيفة الجمالية في الصورة البلاغية ، والإيقاع ، والمفارقة ، وبناء المشهد الحوارى ، مما جعل المناظرة العباسية نصّاً أدبياً متكاملًا ، يجمع بين الإقناع والمتعة.

الوظيفة التواصلية للحجاج في المناظرات الأدبية في العصر العباسي
شكّلت المناظرات الأدبية في العصر العباسي فضاءً تواصلياً مركزيًا لتبادل الأفكار والرؤى النقدية واللغوية ، ولم تكن مجرد سجالات نخوية منعزلة ، بل مثلت نمطًا من الخطاب الموجه إلى متلقٍ حاضر أو متخيّل ، تُراعى فيه شروط الفهم ، والتأثير ، والاستجابة. ومن ثمّ ، فإن الحجاج في هذه المناظرات لم يؤدّ وظيفة إقناعية فحسب ، بل اضطلع بدور تواصلى يسعى إلى بناء جسور الفهم ، وتنظيم الخلاف ، وضبط آليات الحوار بين المتناظرين والجمهور. وهكذا يمكننا القول أن الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية أسهم في تأسيس نموذج مبكّر للتواصل الثقافى ، يقوم على تبادل الحجج ، واحترام السياق ، واستحضار المتلقى بوصفه

مظاهر الوظيفة التواصلية للحجاج

في المناظرات العباسية

١. الحجاج التفسيري وتيسير الفهم
من أبرز مظاهر الوظيفة التواصلية للحجاج اعتماد الشرح والتفسير، ولاسيما عند معالجة قضايا نقدية أو لغوية دقيقة. إذ يحرص المتناظر على تفكيك الفكرة وتقريبها إلى ذهن المخاطب. ومن ذلك ما يورده الجاحظ في حديثه عن البيان، حين يشرح الفرق بين اللفظ والمعنى، مؤكداً أن الغاية هي «إفهام السامع والتبيين، ج ١، ص ٥٢». يسهم هذا النمط من الحجاج في تعزيز التواصل، ويجعل المناظرة أداة تعليمية إلى

جانب كونها ساحة جدل

٢. الحجاج التداولي ومراعاة المقام
تتجلى الوظيفة التواصلية للحجاج في مراعاة المقام والسياق، إذ تختلف صيغة الخطاب باختلاف المخاطب، سواء أكان عالماً، أم أديباً، أم جمهوراً عاماً. وقد وعى الأدباء العباسيون هذه الحقيقة، فجاء خطابهم متلوناً بحسب المقام. ويشير التوحيدي إلى ذلك في وصفه لاختلاف طرائق المتكلمين باختلاف المجالس، إذ يقول إن لكل مقام «مقالاً يليق به»

عنصرًا فاعلاً في العملية الخطابية. الحجاج وتنظيم الفعل التواصلية يُؤدّي الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية وظيفة تنظيمية للفعل التواصلية، إذ يضبط مسار الحوار، ويمنع انزلاقه إلى الخصومة الشخصية أو الفوضى اللفظية. ويتجلى ذلك في اعتماد المتناظرين على صيغ لغوية تُراعي المخاطب، وتؤكد الرغبة في الإفهام قبل الغلبة. ويشير التوحيدي إلى هذا البعد حين يذكر أن بعض المتناظرين «يتواصلون بالإنصاف، ويتناهبون عن الشغب» (التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص ٥٦)، وهو ما يدل على وعي بأهمية التواصل المنضبط في إنجاح المناظرة.

لا يقتصر الخطاب الحجاجي في المناظرات العباسية على المتناظرين وحدهم، بل يستحضر المتلقي بوصفه شاهداً وحكماً ضمناً. ولهذا تُصاغ الحجج بأسلوب يراعي الفهم العام، ويُجنب الغموض المفرط. ويؤكد الجاحظ هذا المعنى حين يقول إن الكلام إنما يُقاس «بقدر ما يفهم ويبلغ المعنى إلى السامع» (الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٣)، وهو ما يجعل التواصل شرطاً أساساً لنجاح الحجاج.



، الإمتاع والمؤانسة ، ج ٢، ص ٣٤). تُسهم هذه الصيغة في الحفاظ على جسور التواصل ، وتجعل المناظرة فعلاً ثقافياً لا صراعاً عدائياً.

أثر الوظيفة التواصلية للحجاج في الثقافة الأدبية العباسية
 أسهمت الوظيفة التواصلية للحجاج في المناظرات الأدبية العباسية في ترسيخ ثقافة الحوار وتقبّل الاختلاف ونشر المعارف النقدية واللغوية خارج الدوائر الضيقة ، كذلك بناء تقاليد خطابية قائمة على الفهم والتفاعل وبذلك ، أدّت المناظرات دوراً محورياً في تشكيل المجال الأدبي العباسي بوصفه فضاءً تواصلياً حياً ، وبذلك يمكن القول أن الحجاج في المناظرات الأدبية العباسية أدّى وظيفة تواصلية أساسية ، تجاوزت حدود الإقناع إلى تنظيم الفعل الحواري ، وبناء التفاعل ، وضبط الخلاف. وقد تجلّت هذه الوظيفة في الحجاج التفسيري ، والتداولي ، والحواري ، والتقويمي ، مما يعكس وعياً مبكراً بأهمية التواصل في الخطاب الأدبي والثقافي.

(التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج ٢، ص ٢١). ويؤدي هذا الوعي التداولي دوراً أساسياً في إنجاح التواصل الحجاجي ، ومنع سوء الفهم. ٣. الحجاج الحواري وبناء التفاعل

يتميّز الحجاج في المناظرات العباسية بطابعه الحواري ، حيث يقوم على الأخذ والرد ، والسؤال والجواب ، وهو ما يعزّز التفاعل بين أطراف الخطاب. ولا يقتصر هذا التفاعل على المتناظرين ، بل يمتدّ إلى القارئ الذي يجد نفسه منخرطاً في مسار الحوار. ويظهر هذا بوضوح في الإمتاع والمؤانسة ، حيث يعمد التوحيدي إلى نقل الأسئلة والأجوبة بتفاصيلها ، مما يحوّل المناظرة إلى تجربة تواصلية حيّة (التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج ١، ص ٨٥-٨٨).

٤. الحجاج التقويمي وضبط الخلاف
 من وظائف الحجاج التواصلية في المناظرات العباسية تقويم مسار الخلاف ، ومنع تحوّلته إلى قطيعة فكرية. ويتجلّى ذلك في اعتماد صيغ لغوية تُخفّف حدّة التناقض ، وتفتح مجالاً للتفاهم. ومن ذلك قول أحد المتناظرين كما يورده التوحيدي : «قد نختلف في الطريق ولا نختلف في الغاية» (التوحيدي



خصائص الحجاج في المناظرة العباسية :

بعد استعراض وظائف الحجاج في المناظرات الأدبية للعصر العباسي وجدنا جملة من الخصائص التي تميزت بها تلك المناظرات وكان أهمها :

١. الجدلية الثنائية : تقوم المناظرة العباسية على الحوار بين طرفين متقابلين يمثل كل منهما فكرة أو قيمة.
٢. الرمزية : كثير من المناظرات تجعل الحيوان أو الجماد ناطقاً باسم الإنسان.
٣. التكتيف اللغوي : يعتمد النص المناظري على العبارة القصيرة المشحونة بالمعنى.
٤. الانفتاح الدلالي : لا تفرض المناظرة حكماً نهائياً ، بل تترك المجال لتأويل القارئ.
٥. الدمج بين المنطق والبلاغة : فالحجاج يوظف القياس والتمثيل ، لكنه يلبس ثوب البيان الشعري

المبحث الثالث

الحجاج في مناظرة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري.

يُعدّ كتاب «الصاهل والشاحج» من أكثر نصوص أبي العلاء المعري إثارةً للجدل ؛ إذ يتجاوز كونه مناظرة تخيلية بين الفرس والبغل ، إلى كونه

بناءً حجاجياً مركباً يتوسل الحيوان قناعاً لنقد الإنسان ، ويُقيم منطقته الجدلي على المفارقة والسخرية والإلزام العقلي. فالمناظرة لا تقوم على مجرد تبادل الآراء ، بل على تفكيك دعاوى التفاضل (النسب ، الأصل ، المنفعة ، القوة) عبر سلسلة من الحجج المتقابلة التي تُفضي في مجموعها إلى نسف وهم التفاضل المطلق ، وهي مناظرة تنطوي على سلسلة من المناظرات والجدليات والاختلافات بين شتى الأشخاص والطوائف والأقوام على أمور مختلفة منها النقدية التي تخص الشعر والنثر والتفاضل بين الشعراء ، ومنها العقائدية ومنها اللغوية ومنها ما اختص بمعاني الكلمات ومنها ما تعلق بمعاني بعض الأسماء والألقاب وأمرات تتعلق بأحداث مهمة وشخصيات معروفة ومختلف جوانب حياة الإنسان والحيوان معا ، بأسلوب سلس يعتمد على الدراما والمشاهد وتعدد الشخصيات الفرعية بالإضافة إلى الشخصيات الرئيسية وكثرة الحوار الذي هو عماد المناظرات .



بنية المناظرة وآلية الاشتغال
 الحجاجي ١
 منطق الدعوى والرد ١
 يفتتح الصاهل (الفرس) مناظرته
 بدعوى التفاضل القائمة على النسب
 والوظيفة السلطوية ، فيقول : ”
 زعمت أي خالك ؟ وأين الافق من
 اللئيم ولدته غافق ؟ وما بين الشربة
 والصربة من سهمة ؟ وما قرابة
 البيدانة إلى الريدانة ؟ ” (المعري ،
 الصاهل والشاحج ، ص ١١٣). هذه
 الدعوى تُبنى على حجة المقام
 الاجتماعي ، وهي حجة شائعة
 في المناظرات الطبقيّة وقد جاءت
 بناءً على دعوة الشاحج له بخالي
 وهو أمر أنف منه الصاهل . ونجد
 أنّ الشاحج (البغل) لا يردّ بنفي
 مباشر ، بل يعتمد حجة الإلزام :
 ” فالجنسية قرابة بين المتجانسات
 . ثم يتفرع ذلك إلى ترتيب الأنواع
 : فالحيوان كله جنس بينه تقارب
 بالجنسية ، فقد جمعنتي وإياك
 الحيوانية وكوننا من ذوات الأربع
 قرابة ثانية وأخص من ذلك أننا
 من ذوات الحافر » (ص ١٧٠) هنا
 يستخدم المعري قياساً ساخرًا يفكك
 منطق الخصم من داخله ، ويحوّل
 الدعوى إلى نقيضها.

السخرية بوصفها أداة حجاجية ١
 ١. السخرية المبطنة
 السخرية عند المعري ليست زينة
 أسلوبية ، بل آلية إقناع. فحين
 يتفاخر الصاهل بأصله العربي
 وتفضيل أبناء آدم له « نحن معاشر
 الجبهة أولى بالعرب من كل الحيوان .
 وفينا ورد جيد الشعر العتيق ، وإيانا
 ذكرت الفرسان السالفة والفصحاء
 المفتخرة ، بالإيثار على العيال : الولد
 والأم والعرس ” (١٥٦) ، فيردّ الشاحج
 : « وربما صورت الغريزة لصاحبها
 ما يقع الاجماع على بطلانه . تظن
 السمجة أنها جميلة ، والقصيرة أنها
 فارعة ، واليد البخيلة أنها سمحة ،
 وإنما يحمل على ذلك قلة التمكن
 من المعقول . ومن كان ذا وفارة من
 اللب كان بالعكس من هذه الصفة
 ، لأن عقله يعلمه أن الله تعالى قادر
 على أن يخلق من يفضله (ص ١٦٨).
 في هذا الموضوع : يُنقل النقاش من
 تفاضل الأجناس إلى تفاضل العقول ،
 ويُقلب ميزان القيم من الأصل إلى
 الفعل ، وهي حجة أخلاقية عقلية
 تجرّد الخصم من أداة تفوقه .
 ٢. التهكم الحجاجي
 يقول الصاهل مفتخرًا ومفندا قول
 الشاحج في ان له القدرة على نظم

وخدمة الانسان ولا فضل لأحد على أحد .

المفارقة الحجاجية وقلب المراكز \ من غريب الأمور في المناظرة , انها تبدأ بشكوى الشاحج من بني الانسان وظلمه له ورغبته في ايصال ذلك التظلم لعزيز الدولة على لسان الصاهل , وبعد ذلك يبدأ الصاهل بالتفاخر بقربه من بني البشر وتفضيلهم له على سائر المركوبات بل وحتى على اولاده وأهل بيته , ثم ما يلبث أن يصفه بالظلم وعدم الوفاء ويبدأ بتعداد ما يقوم به من فضائع الأمور بحق الحيوانات : ” وبنو ادم كما علمت , لا يحفظون الخلة , ولا يراعون الخدمة » (١١٨) , وهنا نجد انقلاب في المراكز , إذ يبدأ الشاحج بالدفاع عن الانسان , ويعيب على الصاهل ذمه ووصفه بالظلم : » وأما ذمك بني ادم و صفتك إياهم بالعنف المفرط فإن احسانا سبق فريق , واکراما ما ترك لك مراما ” (١٧٣) , وهي مفارقة أخلاقية تقلب مركز التفاضل , وتُحيل القارئ إلى نقد الشخص المتعالي الذي لا يحفظ الود .

لا يمكن فصل هذا الحجاج عن نزعة المعرّي في التشكيك ونقده

الشح : ” ونحن بعد شركاء القوم في الطعام والكسوة ومحل الأجسام وليس فينا من يزعم أنه يقدر على موزون القول وإنما ذلك فضيلة الانس ” (ص ١٦١). فيردّ الشاحج ردّاً تهكّمياً : ” وأما زعمك أني أدعي نظم الكلم , فقول منك انبأنا عن قلة تأملك , وعجلتك في شئونك . إذ كنت لا تعدم أحد أمرين : إما أن تبطل القياس , وإما أن تثبته » (ص ١٧٩). التهكّم هنا يُسقط الادعاء التفضيلي , ويعيد الفرس إلى واقعه الوظيفي القهري , وهي حجة واقعية تُواجه المجاز بالمشاهدة .

الحجاج العقلي ونقض التفاضل \ من أبرز آليات الحجاج في النص اعتماد العقل المجرد , لا الحس ولا العاطفة. يقول الشاحج : ” والله تعالى جعلني وإياك قرنين فقال : (والخيال والبغال والحمير لتركبوها) والاتن في أكفها لا تسلم الفضل إلى الخيل في سروجها ” (ص ١٧١) , هذا النص يقوم على حجة دامغة وهو النص القراني الغير قابل للنقاش والتفنيد , وبذلك تمكن من نفي معيار التفاضل الواحد , وهو ما يقود إلى نتيجة ضمنية , أن جميع الحيوانات خلقها الله للركوب



السيادة المطلقة. الحجاج هنا ليس زخرفاً جوهر البناء الفكري ، إذ تتقاطع الحجج العقلية ، والأخلاقية ، والشرعية ، والتجريبية في نسق جدلي تراكمي.

الإطار التداولي للمناظرة ووظيفته الحجاجية \

اختيار محكمة الجن ليس اعتبارياً ، بل يحمل دلالة حجاجية عميقة ، فالجن كائنات عاقلة غير متحيزة للإنسان أو الحيوان وهي تمثل العقل الكوني الوسيط وتؤدي في النص وظيفة القاضي الفيلسوف . يقول اخوان الصفا : ” فيما اجتمعت

زعماءؤها وخطبائها ذهبوا إلى بيوراسب الحكيم ملك الجن ، فبعث رسولا إلى أولئك القوم ودعاهم إلى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك الموكب إلى هناك وكانوا نحو من سبعين رجلا من بلدان شتى ، فلما بلغه قدومهم امر لهم بالإنزال والإكرام ثم أوصلهم إلى مجلسهم بعد ثلاثة أيام ، وكان بيوراسب ملكا حكيما عادلا كريما منصفا سمحا يقري الأضياف ويأوي الغرباء ويرحم المبتلى ويمنع الظلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يتغى بذلك إلا وجه الله ومرضاته

للسلطة الاجتماعية والدينية ، ورفضه للتراتبية الجاهزة ، فالمناظرة في جوهرها محاكمة للعقل الجمعي الذي يقدّس الأصل ، والقوة ، والمكانة. فمن خلال قراءة نص الصاهل والشاحج وتحليل الحجاج فيه ، يتبين أنّ أبا العلاء المعري أقام مناظرة لا تهدف إلى الانتصار لطرف ، بل إلى تفكيك منطق التفاضل ذاته مستخدماً السخرية ، والقياس العقلي ، والإلزام الجدلي ، وبذلك تحوّل النص من مناظرة حيوانية إلى بيان فلسفي أخلاقي يضع الإنسان موضع المساءلة.

الحجاج في مناظرة تداعي الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن

تعدّ رسالة «تداعي الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن» من أكثر رسائل إخوان الصفا تعقيداً من حيث البنية الحجاجية ؛ إذ تقوم على مناظرة كونية كبرى تُستدعى فيها مختلف الكائنات للدفاع عن حقوقها أمام سلطة محايدة هي الجن. ولا تبتغي هذه المناظرة الانتصار لطرف بقدر ما تهدف إلى اختبار دعاوى التفاضل والهيمنة ، وكشف الأسس الوهمية التي قام عليها ادعاء الإنسان

« (تداعي الانسان على الحيوان , اخوان الصفا , ص ٣) , وهذا التقديم يؤسس لحجاج يقوم على إبطال الانحياز المسبق , ويكسب المناظرة شرعية عقلية.

الحجاج الحيواني وبناء خطاب المظلومية ١

١. حجاج المنفعة ونقض التفاضل

في معرض تقديم الانسان للحجاج على امتلاكه واستعباده للحيوانات , يقوم بتعداد المنافع التي تجنيها الحيوانات من اهتمامه بها , ورعايته لها فيقول : « وإطعامنا وسقينا لها , وأن نكسوها ونكنها من الحر والبرد , ومنع عنها السباع أن تفترسها , ونداويها إذا مرضت ونشفق عليها إذا اعتلت , ونعلمها إذا جهلت , ونعرض عنها إذا جنت , كل ذلك نفعه اشفاقا عليها ورحمة لها » (ص ١٠ - ١١) . ثم بعد ذلك تُعدّد الحيوانات منافعها لنقض التفاضل : ” وما ذكره من سائر ما يفعلون بنا فليس ذلك شفقة منهم علينا ولا رحمة بل مخافة أن نهلك فيخسرون أثماننا ويفوتهم منافعهم بنا من شرب ألباننا والتدثر بأصوافنا وأوبارنا وأشعرنا وركوبهم ظهورنا وحملنا أثقالهم » (ص ١٢).

وهنا يتأسس الحجاج على المنفعة الواقعية لا على المجردات , في مقابل تفاضل الإنسان القائم على الادعاء العقلي المجرد , إذ تبين الحيوانات بأن انتفاع الانسان منها مرتبطة باستمرار حياته ووجوده , ولكن المنافع التي يقدمها لها الانسان ليست ضرورية لاستمرار وجودها كما إنها لا توازي الضرر المتحصل منه على حياتها .

٢. الحجاج الأخلاقي

تقول الحيوانات : « لو كان الفضل بالقوة , لكننا أحق به , ولو كان بالحيلة , لكانت الثعالب أولى , ولكن الفضل بالعدل , والعدل مفقود » (ص ١٢). وهذا المقطع يقوم على تفكيك معايير التفاضل واحداً واحداً , ثم الإحالة إلى معيار أخلاقي أعلى (العدل) , وهو حجاج ينسجم مع النزعة الأخلاقية لإخوان الصفا . حجاج الإنسان واستراتيجية الاستعلاء العقلي ١

يقوم الانسان بتقديم حجج تسوغ له استعباد الحيوان من وجهة نظره وهي حجج تنطوي على الاستعلاء والتكبر , قال زعيم الانس « إن لنا حججا عقلية ودلائل فلسفية تدل على صحة ما قلنا , قال الملك



: ماهي بينها , قال : نعم هي حسن صورتنا وتقويم بنية هيكلنا وانتصاب قامتنا وجودة حواسنا ودقة تمييزنا وذكاء نفوسنا ورجحان عقولنا , كل هذا دليل على انا ارباب وهم عبيد لنا « (اخوان الصفا , ص ٧) . وهذه حجج عقلية تستند إلى التكامل الصوري ومركزية العقل , غير أن الحيوانات , تفند تلك الحجج بعقل شرعية وعقلية تعود إلى مشيئة الله في خلق انتصاب قامة الانسان وانحناء قامة الحيوان لتعلقها بأمر تخص سهولة الحصول على المعيشة والطعام وأن الانتقاص من المخلوق يعد انتقاصا من الخالق , وأما جودة الحواس فمن الحيوانات ما تفوق الانسان بحواسها , وأما العقل والذكاء فلا يجدر بالإنسان أن يتباهى به على سائر المخلوقات لأنه من خلق الله وليس مما صنعه هو « ولو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتم علينا بشيء ليس هو من أفعالكم ولا بكسب منكم بل هي مواهب من الله تعالى لتعرفوا مواقع النعم وتشكروا له ولا تعصوه , وإنما العقلاء يفتخرون بأشياء هي أفعالهم الصنائع المحكمة والاراء الصحيحة والعلوم الحقيقية » (ص

(١٠)

التراكم الحجاجي وتعدد الأصوات \ من أبرز خصائص النص تعدد المتكلمين (الثور , الكبش , الجمل , الفيل , الفرس , البغل) , فكل صوت يقدم حجة نوعية تنقض ادعاءات الانسان : « ثم تكلم الثور وقال لو رأيتنا أيها الملك ونحن أسرى في أيديهم مقرنين في معاصرهم , مشدودين في دواليبهم , وأرحيتهم , مغطاة وجوهنا مشدودة أعيننا , وديدنهم العصا والمقارع وهم يضربون وجوهنا وأدبارنا لرحمتنا فأين الرحمة منهم , ثم تكلم الكبش فقال لو رأيتنا أيها الملك ونحن اسرى في أيديهم وهم اخذون صغار أولادنا من الجداء والحملان فيفرقون بينها وبين امهاتها يستأثرون بألباننا ويجعلون أولادنا مشدودة أيديها وأرجلها الى المذابح والمسالخ جائعة عطشانة , تصيح ولا ترحم وتصرخ ولا تغاث ثم نراها مذبوحة مسلوخة مشققة أجوافها مفرقة عظامها ورؤوسها ومضاربها وأكبادها في دكاكين القصابين » (ص ١٢- ١٣) . فهذا التعدد يُنتج تراكمًا حجاجيًا يجعل من الصعب نقض الدعوى الحيوانية بحجة واحدة.

تدخل الجن للفصل بين المتخاصمين
 ١ يتدخل قاضي الجن فيحكم حكماً
 وهذا الحكم لا ينحاز انحيازاً كلياً ،
 بل يفضح خلل الممارسة الإنسانية ،
 ويُتَوَجَّح بقوله : « لو استعمل الإنسان
 عقله فيما خُلِقَ له ، لكان سيِّداً
 بالعدل لا بالقهر » (ص١٦). وهي
 خلاصة حجاجية أخلاقية فلسفية
 تمثل موقف إخوان الصفا .

الدلالة الفكرية للحجاج في الرسالة ١
 يتجاوز الحجاج هنا إطار المناظرة
 إلى نقد المركزية الإنسانية ، مساءلة
 مفهوم الخلاف ، الدعوة إلى عدالة
 كونية ، وهو ما ينسجم مع
 المشروع الإخواني القائم على التدرج
 الوجودي ، ووحدة الخلق ، وألوية
 الأخلاق على القوة . يكشف تحليل
 الحجاج في تداعي الإنسان والحيوان
 أمام محكمة الجن عن نصٍّ شديد
 الإحكام الجدلي ، ومتعدد الآليات
 الحجاجية ، كما ويوظف الخيال
 لخدمة العقل ، وقد نجح إخوان
 الصفا في تحويل المناظرة إلى محاكمة
 فلسفية للحضارة الإنسانية ، تُقاس
 فيها القيمة بالفعل لا بالادعاء ،
 وبالعدل لا بالهيمنة .

الحجاج في مناظرة السيف والقلم ١
 تندرج مناظرة السيف والقلم التي
 كتبها ابن برد الأصغر وهو شاعر
 عباسي من القرن الثالث الهجري ،
 ضمن مشروع فكري جدلي ساد في
 ذلك العصر لإظهار قدرة الكتاب
 على الجدل البلاغي والتفنن في
 الحجاج ، حيث لا تُورد المناظرات
 لمجرد التسلية البلاغية ، بل بوصفها
 تمثيلاً رمزياً لصراع القيم داخل
 الثقافة العباسية ، كقيمة القوة
 والبطش في مقابل قيمة العقل
 والبيان ، فالمناظرة ليست صراع
 أدوات ، بل صراع انمؤذجين للسلطة ،
 سلطة تُؤسَّس على القهر (السيف) ،
 وسلطة تُؤسَّس على الإقناع والمعرفة
 (القلم) ، والحجاج هو الأداة المركزية
 التي تُدار بها هذه المواجهة .

الإطار الحجاجي وبنية المناظرة ١
 تقوم المناظرة على التشخيص ؛ إذ
 ينطق السيف والقلم ، فيتحولان إلى
 ذاتين متحاجتين ، لكل منهما دعوى
 تفاضل ، ومنظومة قيم ، وخطاب
 إقناعي مستقل ، يقول ابن برد في
 تقديم المناظرة : “ فهما مثل جوادين
 سبقا في حلبة ، أو غصنين نسقا في
 تربة ، بل هما مثل نجمين أنارا في
 أفق ، وسهمين صارا على نسق ، غير



حجة حجاجية ضعيفة منطقيًا ، لأن القيمة المادية لا تستلزم التفاضل ، وابن برد يوردها ليُظهر هشاشتها الضمنية.

حجاج القلم - منطق العقل والبيان
١

١. الحجاج العقلي

يردّ القلم ردًا مؤسسًا على العقل :
” الحق أبلج والباطل لجلج ، أجب الغنى من ضروعه ، وأجتني الندى من فروعه ، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الأمل ، شفيح كل ملك إلى مطالبه ووسيلته إلى مكاسبه ” (شوقي ضيف ، ص ٤٦٠) ، وهذه حجة عقلية معرفية تجعل الفضل في الهداية لا في الإكراه ، والقيمة في العلم لا في الماديات .

٢. حجاج الشرعية الدينية والعقل ١

يقول القلم : ” (ن . والقلم وما يسطرون) فجل من مقسم وعز من قسم ، لقد أخذت الفضل برمته ، وقدت الفخر بأزمته » (شوقي ضيف ، ص ٤٦٠) . وهنا يستخدم القلم حجاجا يقوم على حجة شرعية وهو النص القراني ، فقسم رب الجلالة بالقلم لهو دليل كبير على أهميته وعلو مكانته ،

أنهما جررا أذيال الخيلاء تفاخرا ، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه ، وامتد بينهما الجدل والخصام ، فقاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال ” (شوقي ضيف ، تاريخ الأدب ، ص ٤٦٠) . وهذا التقديم يُعلن منذ البدء أنّ ما يلي مرافعات حجاجية لا أوصافًا جامدة.

حجاج السيف - منطق القوة والرهبة ١

١. حجاج السلطان والواقع

يستهل السيف خطابه بالاحتجاج بالواقع السياسي : ” إن الملوك لتبادر إلى دركي ، ولتتحاسد في ملكي ، ولتتوارثني على النسب ، والتغالي في على الحساب » (شوقي ضيف ، ص ٤٦٠) . وهذه حجة تقوم على السلطة الفعلية ، وربط الفضل بالنتيجة المباشرة (الخضوع ، الطاعة) ، وهي حجة واقعية ، لكنها غير أخلاقية ، تعتمد منطق الغلبة لا الإقناع .

٢. حجاج القيمة المادية

يقول السيف : ” أمستعرب والفلس ثمك ، وكل بقعة وطنك » (شوقي ضيف ، ص ٤٦٠) . هنا يعتمد السيف حجة القيمة المادية ، وهي

لأنه رمز للعقل والحكمة والعلم ، وهي موازين مهمة في حياة الأفراد ، وإقامة الدول ، وتعد أكثر أهمية من القوة والتسلط والهيمنة .

المفارقة الحجاجية والسخرية المبطنة

يقول القلم ساخرًا : ” استعيذ بالله من خطل أرعيت فيه سوامك ، وزلل افتتحت به كلامك ، وإن ازدراءك بتمكن وجداني ، وبخس أثمانني ، لنقص في طباعك ، وقصر في باعك ، ألا وإن الذهب معدنه في العفر ، وهو أنفوس الجواهر ، والنار مكمناها في الحجر ، وهي إحدى العناصر ، وإن الماء وهو الحياة أكثر المعاش وجدانا ، وأقلها أثمانا ، وقلما تلقى الأعلاق النفيسة ، إلا في الأمكنة الخسيسة ” (شوقي ضيف ، ص ٤٦١) نجد السخرية هنا ليست هجاءا ، بل أداة تفكيك حجاجي ، وصورة للتمييز الأخلاقي ، فيدين السيف من حيث لا يصرح ، وهي حجة تقوم على تحديد القيمة من خلال النظر للجوهر لا المظهر .

مناظرة أبو سعيد السيرافي ومتى بن يونس في الامتاع والمؤانسة للتوحيد
يُعدّ كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي

حيان التوحيدي من أبرز نصوص الأدب العربي في العصر العباسي ، إذ يجمع بين السمر الأدبي والحوار الفكري والمناظرات المحاجة في مختلف القضايا اللغوية والنحوية ، والمنطقية والفلسفية ، وغيرها من موضوعات العلم والأدب. يقدم التوحيدي مناظراته في سياقات اجتماعات ليلية بينه وبين الوزير أبي عبد الله العارض ، وقد جمعها ودونها في هذا السفر العظيم تحت طلبات وتحديات الوزير وصديقه أبي الوفاء المهندس.

في سياق ذلك ، تُعدّ مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس واحدة من أشهر مناظرات الكتاب ، وقد أثارت اهتمام الدارسين لثرائها الحجاجي ولما تمثله من صراع فكري بين منطق علمي مستورد (المنطق اليوناني عبر الترجمة) وبين أصالة العلم العربي ونحوه. نشأت هذه المناظرة في بغداد خلال القرن الرابع الهجري ضمن مجالس الوزير ابن الفرات. وكان الوزير غالبًا ما يطرح موضوعات تثير جدلاً معرفيًا بين رواد العلم في عصره ، فيلتقي في المجلس الواحد لغويون ونحويون ومنطقيون وفلاسفة. وكان السيرافي



(نحوي معتزلي) ومتى بن يونس (منطقي ومدرس للمنطق اليوناني) من أبرز المشاركين في هذه المحاور. وقد جاءت المناظرة استجابة لدعوة الوزير ، فعمد كل من المتناظرين إلى الدفاع عن منظومته المعرفية : السيرافي عن أصالة النحو العربي وشرعيته ، ومتى عن ضرورة المنطق كأساس للتفكير العلمي والفلسفي. وهكذا تشكل النقاش في إطار معركة بين نمطين من المعرفة ، عقل لغويّ عربي أصيل مقابل عقل منطقي مستورد من التراث اليوناني عبر ترجمات بغداد.

هيكل المناظرة وأهدافها المعرفية

تتألف المناظرة من سلسلة أسئلة وأجوبة ، يتداخل فيها الحجج مع التساؤل البنيوي في قواعد النحو والمنطق. وقد برز فيها عدة أهداف ، النقاش حول أسبقية معرفة النحو على المنطق ، إذ يناقش السيرافي قيمة النحو العربي وأسبقته كإطار لفهم اللغة والمعنى ، في مقابل المنطق الذي يؤسس لاستدلالات فلسفية بحتة ودحض مزاعم الخصم ودعم الرؤية الذاتية ، فكلا الطرفين يسعى إلى دعم رؤيته باستخدام الحجج البلاغية والمنطقية معاً ، لكن

الاختلاف في أدواتهما. وأيضاً تحويل الخطاب من المباشر إلى الضمني ، إذ نجد التوحيدي — بصيغة السارد — يميل أحياناً إلى توظيف أسلوب غير مباشر في نقل المناظرة ، فينتقل من القول الصريح إلى التضميني لتمرير مضامين ترمي إلى تأثير القارئ وإيقاظه بعيداً عن أسلوب النقاش المباشر.

السمات الحجاجية في المناظرة

١.التداخل بين النحو والمنطق
تمثلت أبرز نقاط الخلاف في مدى اعتبار المنطق أداة معرفية مستقلة عن اللغة العربية. مثلاً ، يرى متى بن يونس أن المنطق قيمة معرفية ضرورية لفهم القضايا الفلسفية والمعرفية ، وأنه يمكن أن يساعد في استنباط الحقيقة فلسفياً . في المقابل يقدم السيرافي حججاً نحو تعظيم النحو العربي وأهميته في تأسيس الفهم الصحيح للفكر والمعنى. ” قال السيرافي : حدثني عن المنطق ماذا تعني به ؟ فانا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة . قال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفساد



ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم» (ص ٨٠)
 ٢. استعمال الأساليب البلاغية
 استعان الطرفان بوسائل بلاغية متعددة مثل المقارنة ، والتشبيه ، والاستعارات ، ومبادئ السجع ، والإيقاع في الخطاب ، وذلك لإقناع الجمهور (الوزير والحضور) بفلسفتهما. وتكشف هذه الأساليب عن وعي حجاجي عالٍ بالأسلوب أكثر منه مجرد نقاش فقهي أو لغوي. ” قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أت الترجمة صدقت وما كذبت ، وقومت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، أنها ما التاثت ولا حافت ، ولا نقصت ولا زادت ولا قدمت ولا أخرت » (ص ٨١)
 ٣. الحجاج والتضمين
 نجد أن المناظرة أصبحت مادة خصبة ليس فقط بما حوته من معرفة وإيضاحات لكثير من القضايا المعرفية المهمة ، وإنما أيضا بكثرة التضمينات التي ذكرها المتناظران لاسيما الايات الشعرية التي جاءت لتعزيز بعض المعاني ، وكسر جمود النصوص ، « قال أبو سعيد : أخطأت وتعصبت وملت مع الهوى ، فان علم العالم مبعوث في العالم

المعنى من صالحه ، كالميزان فاني أعرف به الرجحان من النقصان ، والشائل من الجانح . فقال أبو سعيد : أخطأت ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية ، وفساد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقل ، وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن لك بمعرفة الموزون أيها هو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها » (التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ص ٨٠)
 ينطوي النص على بداية الصراع ، وهذا الصراع جعل من المناظرة ما يشبه مناظرة بين النظامين المعرفيين — لغة عربية كأداة للمعرفة مقابل منطق اليونان المترجم والمستعار والذي لا يمكن تطبيقه على اللغة العربية وغيرها . يقول السيرافي : « إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفون هبها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم الترك والعند والفرس والعرب ان



المنطق اليوناني في مقابل الحفاظ على الأصالة العربية في العلوم اللغوية والنحوية.

إن مناظرة السيرافي ومتى بن يونس في كتاب الإمتاع والمؤانسة تبقى أمموذجًا صارخًا لطبيعة الحوار المعرفي في العصر العباسي ، إذ تمزج بين جمالية الخطاب وحِدَّة الجدل الفكري ، وتعرض صراع قيم معرفية كان له تأثيرا مباشرا في تطوُّر الفكر العربي في القرون اللاحقة. كما تُعدُّ هذه المناظرة وثيقة حجاجية تؤكد أن المناهج الحجاجية في التراث العربي لم تقتصر على الفقه أو الكلام فحسب ، بل امتدت إلى الشعر والنحو والمنطق والفلسفة ، لتشكل بذلك أمموذجًا فريداً في تاريخ الفكر الإسلامي.

المبحث الرابع

دلالات الحجاج في المناظرات العباسية :

لا يمكن مقارنة الحجاج العباسي بوصفه تقنية بلاغية فحسب ، بل ينبغي النظر إليه باعتباره نظامًا دلاليًا متكاملًا ، يحمل في بنيته مفاهيم الشمولية ، والوعي ، والرمزية الأخلاقية ، والتفاعل الثقافي. أولاً : دلالة الشمولية في الحجاج

بين جميع من في العالم ، ولهذا قال القائل

العلم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث « (ص ٨١) ، وأيضاً قوله : ” فعلى هذا لم ينفك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيت عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ” (ص ٨٠)

أثر المناظرة ودلالاتها

١. ترسيخ المناقشة العقلية : لقد جسدت هذه المناظرة مدى انخراط العقل العربي في قضايا العقل والمنطق بشكل لم يسبق له مثيل في عصور سابقة ، وهو نتاج طبيعة عصر الترجمة والانفتاح المعرفي في بغداد.

٢. ازدهار الخطاب البلاغي : مع أن المناظرة تطرح قضايا فكرية بحثية ، إلا أن روح البلاغة تبقى حاضرة في كل موضع منها ، ما يدل على أن المناظرة الحقيقية عند التوحيدي ليست مجرد نزاع منطقي بل عرض فني وبلاغي كذلك.

٣. نقد الاستعمار المعرفي : تكشف المناظرة عن وعي نقدي تجاه الاستيراد المعرفي الأعمى خصوصاً



العباسي ١

تقوم الشمولية في المناظرات العباسية على اتساع دائرة الاستدلال ، بحيث لا يقتصر المحاجج على حقل معرفي واحد ، بل يستثمر منظومات متعددة ، فقد كان المتناظر العباسي يستند إلى : النص الديني (القرآن والحديث) ، والعقل الفلسفي (القياس ، البرهان ، الجدل) ، واللغة (النحو ، الاشتقاق ، المجاز) ، والتاريخ والسيرة وأحياناً العلوم الطبيعية والرياضية . وهذا التداخل يعكس وعياً بأن الحقيقة لا تُدرك من زاوية واحدة ، وأن الإقناع لا يتحقق إلا بضمّ أكبر عدد من المرجعيات المشتركة.

أما فيما يخص الشمول الحجاجي ، فلا يقوم الحجاج العباسي على دحض الخصم فحسب ، بل على استباق اعتراضاته وتفكيك مسلماته وإعادة بناء موقفه ضمن منطقيّ أوسع ، وهو ما يجعل المناظرة عملية إنتاج معرفي لا مجرد انتصار خطابي.

ثانياً : دلالة الوعي (الذات - الخصم - السياق) ١

يمثل الوعي أحد أعمدة الحجاج العباسي ، ويتجلى على مستويات عدة ، كوعي الذات المحاججة ،

إذ يدرك المتناظر موقعه العلمي والمذهبي والسياسي ، فيُكيّف خطابه وفقاً له. فنجد المتكلم يوازن بين العقل والنقل ، والفقيه يتحرّز من الفلسفة دون رفضها ، والأديب يوظف البلاغة دون الإخلال بالمنطق . ولا يُبنى الحجاج على تشويه الخصم ، بل على فهمه. لذلك تُنقل حجج الخصم بدقة ، ويُناقش من داخل منظومته ، ويُلزم بنتائج قوله ، وهذا الوعي يعكس نضجاً حجاجياً يُقارب ما تُسميه التداوليات الحديثة بأخلاقيات الحوار (العمري ، بلاغة الخطاب العربي ، ص ٥٢) . وفيما يخص وعي السياق الحضاري ، فالمناظرات لم تكن معزولة عن الصراعات المذهبية ، وحركة الترجمة ، والاحتكاك بالفكر اليوناني والفارسي والهندي ، لذا جاء الحجاج مشبعاً بوعي حضاري يرى في المناظرة وسيلة لتنظيم الاختلاف لا لتدميره . ثالثاً : الرمزية الأخلاقية في الخطاب

الحجاجي ١

لا يخلو الحجاج العباسي من بعد أخلاقي رمزي ، يتجاوز ظاهر الحجة إلى ما تحمله من قيم فقد كان الانتصار في المناظرة لا يُقاس فقط بقوة الدليل ، بل ب: حسن

وإسلامي في مرجعيته وكوني في أفقه ، وهو ما يمنح المناظرات العباسية طابعًا عالميًا سابقًا لعصره (العمري ، في بلاغة الخطاب ، ص ٣٠) .

آليات التلقّي ودينامية الخطاب الحجاجي

ينقسم الخطاب الحجاجي إلى ثلاثة مستويات من الاستمالة :
 ١. الاستمالة العقلية (اللوغوس) : تعتمد على القياس والبرهان والتعليل المنطقي.
 ٢. الاستمالة الوجدانية (الباثوس) : توظف الصورة والمجاز والنبرة العاطفية لإثارة التعاطف.
 ٣. الاستمالة الأخلاقية (الإيثوس) : تقوم على صدق المتكلم وعدالة قضيته .

وبهذا المعنى ، يجمع الخطاب الحجاجي العباسي بين العقل والجمال والأخلاق في نسيج واحد. فالحوار في المناظرة ليس مجرد تبادل كلام ، بل بنية فكرية درامية تعكس الصراع بين منظومتين قيميتين ، والحجاج ليس معركة لغوية ، بل رحلة فكرية تهدف إلى التنوير والتربية العقلية. وقد تكررت في المناظرات الرموز الثنائية : السيف/ القلم ، الإنسان/ الحيوان ، الصاهل \

الأدب ، وضبط النفس ، واحترام المقام فالسلوك الحجاجي نفسه يتحوّل إلى حجة ، وكثيرًا ما تُبنى الحجة على مفاهيم كبرى مثل العدل الإلهي ، والحكمة والإنصاف ، فتتحوّل المناظرة إلى مسرح رمزي لصراع القيم ، لا مجرد التعبير عن الآراء. فيمثّل المتناظر صورة العالم الكامل علمًا وخلقًا ووعيًا بالمسؤولية ، وبذلك تؤدي المناظرة وظيفة تربوية ضمنية رابعًا : التفاعل الثقافي بوصفه دلالة حجاجية \

يُعدّ التفاعل الثقافي من أبرز سمات المناظرات العباسية كالتفاعل مع الفلسفة اليونانية ويظهر ذلك في توظيف المنطق الأرسطي ، ومفاهيم الجوهر والعرض والاستدلال السببي ، لكن دون استلاب ، إذ يُعاد تأويل هذه المفاهيم ضمن المرجعية الإسلامية ، وفيما يخص الحوار بين الأديان والمذاهب فقد شهد العصر العباسي مناظرات مع النصارى واليهود والزندقة والفرق الإسلامية المختلفة ، وكان الحجاج أداة لفهم الآخر ، لا لإلغائه ، كما أفرز ذلك إنتاج خطاب هجين ، إذ نتج عن هذا التفاعل خطاب عربي في لغته



أما عن دور المتلقي في الخطاب الحجاجي فلا يُعدّ عنصرًا سلبياً ، بل شريكاً فاعلاً في إنتاج الدلالة. إذ يقوم المتلقي بتفكيك الحجة وإعادة تركيبها وفق مخزونه المعرفي ، ومرجعيته الثقافية ، وموقعه الإيديولوجي ، وبذلك لا تنتقل الحجة كما هي ، بل تتحوّل دلاليًا داخل وعي المتلقي . وفيما يتعلق بالأفق التأويلي للمتلقي ، فإن لكل متلقٍ أفق توفّع خاص ، يؤثر في قبول الحجة أو رفضها ، وفهم مقاصد المتكلم ، وترتيب الحجج من حيث القوة والضعف ، وهنا يتقاطع الحجاج مع نظريات التلقي الحديثة التي تؤكد نسبية الفهم وتعدّد القراءات

ومن أبرز آليات التلقي في الخطاب الحجاجي للمناظرات العباسية \

١. آلية الاستدراج الحجاجي : حيث يُبنى الخطاب على مسلّمات يشترك فيها المتكلم والمتلقي ، ثم يُقاد المتلقي تدريجيًا إلى نتائج جديدة ، دون صدمة معرفية.
٢. آلية التدرّج الإقناعي : لا تلقى الحجج دفعة واحدة ، بل تُرتّب وفق منطوق الأولوية ودرجة التعقيد ، واستعداد المتلقي للفهم .

الشاحج ، الجوهر/المظهر. وهذه الثنائيات تشكّل العلامات السيميائية الكبرى التي تبني خطاب الحجاج ، حيث يتولّد المعنى من التناقض. فكل مناظرة تُعيد تشكيل الوعي الجمعي وفق قانون الحوار لا الإلغاء. يُظهر التحليل العام للنصوص السابقة أنّ الخطاب الحجاجي العباسي :

١. يربط بين الأدب والفكر الفلسفي.
٢. يجعل من المناظرة وسيلة لتربية الذوق والعقل معًا.
٣. يحوّل القارئ إلى فاعل تأويلي يشارك في إنتاج الحقيقة. وبذلك ، يصبح الحجاج في المناظرة نوعًا من التربية الفكرية والتهديب الجمالي في آنٍ واحد. فلا يكتمل الخطاب الحجاجي عند حدود الإرسال أو بناء الحجة ، بل يتحقق فعليًا في لحظة التلقي ؛ حيث تنتقل الحجة من كونها بنية لغوية منجزة إلى فعلٍ تفاعلي مشروط باستجابة المتلقي. ومن ثمّ فإن دراسة الحجاج تقتضي تجاوز التحليل الشكلي للحجج إلى استكشاف آليات التلقي ودينامية الخطاب بوصفه سيروية متحرّكة ، تتغيّر بتغيّر السياقات والمتلقين وأمّاط الوعي (بيرلمان ، ص ٣١) .



٣. آلية الاستجابة الانفعالية : يتداخل العقل والعاطفة في التلقي ، إذ تُستثمر القيم المشتركة وتُستحضر الأمثلة المؤثرة ، ويُستدعى البعد الأخلاقي مما يعزّز فاعلية الحجة.

دينامية الخطاب الحجاجي ١

يقوم الخطاب الحجاجي على الحركة لا الثبات ، وعلى التفاعل لا الإلقاء. مما يجعله يتسم بالدينامية الحوارية إذ يتشكّل الخطاب الحجاجي في فضاء السؤال والجواب والاعتراض والرد والتقدّم والتراجع ، مما يجعله بنية مفتوحة قابلة لإعادة الصياغة. وفيما يخص تحوّل المواقف الحجاجية ، نجد انه قد تؤدي المناظرة إلى تعديل موقف أو إعادة تعريف مفهوم أو الكشف عن تناقض داخلي ، وهو ما يمنح الخطاب طابعًا إنتاجيًا لا استهلاكيًا. وبالنسبة لزمنية الحجاج فان الحجة لا تُفهم بمعزل عن زمنها سواء في لحظة التلقظ ، أو في سياق التلقي ، أو فيما يخص أثرها اللاحق . فالدلالة الحجاجية مؤجلة أحيانًا ، ومتجددة بتجدد القراءة. وتقوم العلاقة بين الخطاب الحجاجي والمتلقي على جدل مستمر يدعى بالتفاوض الدلالي ، إذ لا يفرض الخطاب معناه

، بل يتفاوض عليه ، عبر الإيحاء أو الاحتمال أو فتح مساحات للتأويل . وفيما يخص سلطة الخطاب وحدودها ، فإنها تتحدد قوة الخطاب بمدى مشروعيته الثقافية ، انسجامه المنطقي وأخلاقته الحجاجية ، فإذا اختلف أحد هذه العناصر ، ضعفت الاستجابة والتلقي. وتصدر الإشارة إلى المتلقي الضمني إذ يفترض الخطاب الحجاجي متلقيًا نموذجيًا عاقلًا ومنفتحًا وقادرًا على الفهم والنقد ، ويبنى الخطاب وفق هذا الافتراض ، حتى إن اختلف المتلقون الواقعيون.

آليات مقاومة التلقي ١

ليس كل تلقٍ تلقياً إيجابياً ، إذ قد يُنتج المتلقي آليات مقاومة ك الرفض الإيديولوجي حين تصطم الحجة بقناعات راسخة ، وهناك أيضاً التأويل المضاد حيث يُعاد تفسير الحجة بما يناقض مقصدها. والتشكيك في المتكلم بنقل النقاش من الحجة إلى صاحبها. وهذه المقاومة جزء من دينامية الخطاب ، لا خلل فيه. تُظهر دراسة آليات التلقي ودينامية الخطاب الحجاجي أن الحجاج ليس بنية مغلقة ، بل ممارسة تفاعلية تتشكّل داخل شبكة معقدة من



الوعي والسياق والتأويل. ومن ثمّ ، فإن فاعلية الخطاب الحجاجي لا تُقاس بقوة الحجة وحدها ، بل بقدرتها على الحركة داخل أفق التلقّي ، وعلى إعادة إنتاج ذاتها في كل قراءة جديدة. فلا يقدّم النص المناظري حقيقة نهائية ، بل يُبقي نهاياته مفتوحة ، ما يجعل المتلقي جزءاً من عملية الإقناع. يقول إيزر في «فعل القراءة» : «النص لا يكتمل إلا بفعل القارئ الذي يملأ فراغاته» (ص ٤٥). وهكذا يتحول المتلقي في المناظرة العباسية من قارئ سلبي إلى شاهد ومحاور ومؤوّل.

الخاتمة

تبين من خلال هذا البحث أنّ المناظرات الأدبية في العصر العباسي لم تكن مجرد ترفّ بلاغي أو لعب لغوي، بل شكّلت فضاءً حجاجياً مركّباً تتقاطع فيه البلاغة مع الفلسفة ، والمنطق مع الأيديولوجيا ، واللغة مع السلطة المعرفية. فقد كشفت مناظرة الصاهل والشاحج للمعري عن توظيف الرمز الحيواني بوصفه قناةً نقدياً يمرّر رؤية اجتماعية وثقافية قائمة على المفاضلة والاحتجاج غير المباشر

، بينما جسّدت مناظرة السيف والقلم لابن برد الأصغر صراع القيم بين القوة والمعرفة ، حيث يُبنى الخطاب الحجاجي على جدل التقديم والتأخير ، واستدعاء السياق السياسي بوصفه مرجعية إقناعية . أما مناظرة تداعي الحيوان على الإنسان لإخوان الصفا ، فقد مثّلت ذروة في الحجاج الفلسفي والأخلاقي ، إذ تجاوزت البنية الثنائية البسيطة إلى خطاب موسوعي يوظّف العقل ، والطبيعة ، والدين ، في شبكة حجاجية معقّدة تهدف إلى مساءلة مركزية الإنسان ومعنى التفاضل الوجودي. في حين جاءت مناظرة السيرافي ومتى بن يونس عند التوحيد كأمودجاً للصراع المعرفي بين منطق اللغة ومنطق الفلسفة ، كاشفةً عن وعي عباسي حاد بإشكالية المرجعيات المعرفية ، وعن حجاج يقوم على تفكيك المسلّمات لا على مجرد دحض الخصم. وقد كان الاختلاف بين هذه المناظرة وسابقتها ، انها عكست رؤيا وأفكار وأسلوب خطابي وحجاجي لشخصيتين حقيقيتين بينهما اختلاف في زوايا النظر والتحليل ، في حين أن المناظرات المتخيلة على الرغم



المصادر.

١. أبو العلاء المعري ، الصاهل والشاحج ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.
٢. أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، محمد الفاضلي ، القاهرة : دار الجيل للنشر ، بيروت .
٣. إخوان الصفا ، تداعي الانسان على الحيوان ، دار الوراق للنشر، الطبعة الأولى .
٤. الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندي، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧.
٥. الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٧ مجلدات ، القاهرة : مكتبة الخانجي .
٦. العمري ، محمد ، في بلاغة الخطاب الاقناعي ، الدار البيضاء ، ٢٠١٨ .
٧. إيذر، فولفغانغ ، فعل القراءة ، ترجمة فخري صالح ، دار الحوار ، اللاذقية ، ٢٠٠٢.
٨. بيرلمان ، شاييم ، لوسي أولبرخت تيتكا ، المصنف في الحجاج (الخطابة الجديدة) ، ترجمة الدكتور علي الولي ، دار الكتاب الجديد .
٩. شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، دار المعارف ، ١٩٩٨.
١٠. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، ١٩٩٢.

من تعدد الشخصيات فيها أحيانا ، لكنها من نسج خيال كاتب واحد ، قدم لنا رأيه والرأي الاخر بصورة تخيلية مشوقة وبرع في الحجاج ، لكن في النتيجة النهائية شخصية الكاتب وميوله وطريقة تفكيره وتحليله للأمور سوف تؤثر قطعا في صورة كلا الجانبين ، ويكون الترجيح لما يريد الكاتب إيصاله للمتلقى . يمكن القول إنّ الخطاب الحجاجي في المناظرات الأدبية العباسية أسهم في بلورة ثقافة الجدل والنقاش ، وأسس لوعي نقدي مبكر بأدوات الإقناع وآليات بناء المعنى. كما أنّ هذه المناظرات ، بما تحمله من تنوع في الموضوعات والأنساق الحجاجية ، تمثل وثيقة فكرية تعكس دينامية العقل العباسي ، وقدرته على تحويل الاختلاف إلى ممارسة معرفية منتجة ، تتجاوز حدود الأدب لتلامس قضايا الإنسان والسلطة والحقيقة.

- Rhetoric of Persuasive Discourse, Casablanca, 2018.
- 7-Iser, Wolfgang, The Act of Reading, translated by Fakhri Saleh, Dar al-Hiwar, Latakia, 2002.
- 8-Perelman, Chaim, and Lucie Olbrecht-Titka, The Treatise on Argumentation (New Rhetoric), translated by Dr. Ali al-Wali, Dar al-Kitab al-Jadeed.
- 9-Shawqi Daif, A History of Arabic Literature, Dar al-Maaref, 1998.
- 10-Abd al-Qahir al-Jurjani, The Signs of Inimitability, Dar al-Maarefa, 1992.
- 1- Abu al-Ala al-Ma'arri, The Neighing and Braying, Dar Sader, Beirut, n.d.
- 2-. Abu Hayyan al-Tawhidi, Enjoyment and Sociability, edited by Muhammad al-Fadli, Cairo: Dar al-Jil Publishing, Beirut.
- 3- The Brethren of Purity, The Insult of Man to Animals, Dar al-Warraq Publishing, First Edition.
- 4-. Al-Jahiz, Eloquence and Exposition, edited by Hassan al-Sandubi, Hindawi Foundation, 2017.
- 5-Al-Jahiz, The Book of Animals, edited by Abd al-Salam Harun, 7 volumes, Cairo: Maktabat al-Khanji.
- 6-Al-Umari, Muhammad, On the